عناية النَّحويين بالتخاطب في تحليل النص وبنائه

(ابن يعيش نموذجًا)

د. رياض رزق الله منصور أبو هولا

أستاذ اللغة والنحو المساعد – كلية الآداب

جامعة طيبة

Hola9775@Gmail.com

تاريخ التحكيم: ٢/ ٤/ ١٤٣٥هـ **تاريخ الإجازة: ٩/ ٦/ ١٤٣٥هـ**

المستخلص :

هذا بحث بعنوان (عناية النّحويين بالتخاطب في تحليل النص وبنائه) و قد اتخذنا من ابن يعيش نموذجًا لتلك العناية، وتكمن أهيمته في بيان أنَّ ما أصبح يعرف في عصرنا الحاضر بنظرية التخاطب، كان موجودًا لديهم على سبيل التوظيف العملي؛ لإظهار البناء الصحيح للنص من جهة، و تحليل النص وتوضيحه من جهة أخرى.

وانقسم البحث إلى أربعة مباحث وتمهيد، تناول التمهيد النظرية التواصلية بشيء من الإيجاز، وتناول المبحث الأول المتكلم و المخاطب، وكان المبحث الثاني عن السياق التخاطبي، وتناول المبحث الثالث الحذف في التركيب التخاطبي، وفي المبحث الرابع والأخير كان الحديث عن القصد والفائدة التخاطبية، ومن ثم جاءت الخاتمة.

الكلمات المفتاحية : التخاطب، المتكلم، المخاطب، ابن يعيش.

المقدمة

اهتم علماء النحو العربي منذ نشأته بوصف المادة اللغوية المنطوقة، أي المادة المتحققة فعلًا في عملية التواصل، وجرى التقعيد لها على أساس الشائع الكثير، منطلقين من مبدأ الأصل و الفرع في تفسير الظاهرة اللغوية .

إنَّ التخاطب اللغوي و التواصل اليومي اتخذا لأنفسهما مكانة متميِّزة في الدراسات الحديثة التي استقلت بنظريات لها أصولها ومبادئها . فاللغة هي أداة التواصل التي يتم بها التعبير عن حاجات الإنسان المختلفة، وجاء هذا البحث ليجلي شيئًا من عناية النحاة العرب بالتخاطب اللغوي وأطرافه المختلفة، وأنَّ ما أصبح يعرف في عصرنا الحاضر بنظرية التخاطب، كان موجودًا لديهم على سبيل التوظيف العملي ؛ لإظهار البناء الصحيح للنص من جهة، و تحليل النص وتوضيحه من جهة أخرى، وقد اتخذت شرح المفصل لابن بعيش نموذجًا لهذه العناية.

وانقسم البحث إلى أربعة مباحث وتمهيد، عرضت في التمهيد بشيء من الإيجاز النظرية التواصلية عند كل من (سوسور ١٨٥٧م_١٩١٣م) و (جاكبسون ١٨٩٦م_١٩٨٢م) ممهدًا بذلك إلى النظرة الحديثة لعملية التواصل، وتناول المبحث الأول المتكلم و المخاطب مركزًا على الأحوال التي يقع كل منهما فيها، والشروط الواجب توافرها لتمام عملية التخاطب بشكل صحيح، وتناول المبحث الثاني السياق التخاطبي ودوره في إيصال الرسالة اللغوية، وذلك من خلال إظهار ابن يعيش لهذا السياق الذي يكون عونًا على فهم التركيب اللغوي، وتناول المبحث الثالث الحذف في التركيب التخاطبي، ومسوغات هذا الحذف، وتناول المبحث الرابع و الأخير القصد والفائدة التخاطبية، ومدى ارتباط كل منهما بالآخر، ومن ثم جاءت الخاتمة التي أثبت فيها ما توصَّل إليه البحث من فوائد ونتائج.

النظرية التواصلية

كثيرًا ما نشعر عند قراءة فكرة ما في كتاب أو مجلة أنَّ هذه الفكرة طرقت أذهاننا من قبل، أو أنها أُجملت عند باحث فمر عليها مرور الكرام، بيد أنَّ المهم هو إظهار تلك الأفكار إلى حيز الوجود، وإخراجها لتصبح عملا متكاملًا و منتظمًا.

إنَّ النظرية التواصلية[1] أفكار قد يشعر الواحد منّا ببساطتها – كمبدأ عام – إلا أنها في حقيقة الأمر نظرية لها أسسها وقوانينها، وقد بدأت هذه النظرية بإضاءات من العالم السويسري (سوسور) ؛ وذلك من خلال ما أشار إليه عند حديثه عن (حلقة الكلام)، أو بمفهوم بعيد (التواصل)، و كان ذلك بافتراض المتكلم والمتلقي أو المخَاطب عند إشارته(للدال والمدلول).

بيد أنَّ رائد هذه النظرية هو العالم الروسي (جاكبسون)، وقد نبعت الفكرة لديه من خلال إفادته من أعمال المهندسين في وقته ، يقول جاكبسون : " إنَّ اللغة يجب أن تدرس في كل تنوع وظائفها ... ولكي نقدم فكرة عن هذه الوظائف، من الضروري تقديم صورة مختصرة عن العوامل المكونة لكل سيرورة [من السير] لسانية، ولكل فعل تواصلي لفظي، إنَّ المرسل يوجه رسالة إلى المرسل إليه، ولكي تكون الرسالة فاعلة فإنها تقتضي بادئ ذي بدء سياقًا تحيل عليه، سياقًا قابلًا لأن

(١) جاكبسون،رومان، قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال ، الدر البيضاء، ط١، ١٩٨٨م. ص ٢٣_ ٣٢. و انظر : بركة، فاطمة الطبال : النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون" دراسة ونصوص" ، ط١، لبنان : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، ١٩٩٣م ، والغزالي، عبد القادر: اللسانيات ونظرية التواصل (رومان ياكبسون نموذجًا) ، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٣م ، و أبلوار، رونالد: مدخل إلى اللسانيات ، ترجمة: بدر الدين القاسم ، دمشق : مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٨٠م ، ص ٤٥_ ٥٠.

يدركه المرسل إليه، وهو إما أن يكون لفظيًا أو قابلًا لأن يكون كذلك، وتقتضي الرسالة بعد ذلك سَنَنًا مشتركًا_ كليًا أو جزئيًا – بين المرسل و المرسل إليه، وتقتضي الرسالة أخيرًا اتصالًا ؛ أي قناة فيزيقية، وربطًا نفسيًا بين المرسل والمرسل إليه، اتصالًا يسمح لهم بإقامة التواصل والحفاظ عليه "[1] وقد عبَّر عن عملية التواصل بالرسم الآتي :

السياق(الموضوع أو المرجع)

المُرسِل الرسالة ⟵ المرسل إليه ⟵(المستقبل)

الاتصال(قناة التواصل)

نظام الرموز(شيفرة التواصل)

ولَّما كان هذا المخطط مشتملًا على ستة عناصر للتواصل اللغوي، فإنَّ جاكبسون قد حدد لكل عنصر منها وظيفة لغوية، وهي :

أولًا: الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية : وهي تشير إلى حالة المُرسِل وطابعه وأفكاره .

ثانيًا : الوظيفة الندائية : وتمثلها الجمل الطلبية و النداء وما شاكلها .

ثالثًا : وظيفة إدامة الاتصال : وهي الألفاظ التي تحاول إبقاء الاتصال قائمًا، وذلك مثل قولهم : سامع، أعرني أذنك .

(١)جاكبسون، رومان، **قضايا الشعرية**، ص ٢٧.

رابعًا : وظيفة ما وراء اللغة : وتعني : دراسة اللغة الهدف، وذكر عناصرها وكل ما يتعلق بها، ويقصد بها : اللغة التي تصف اللغة الطبيعية (كلام اللغة عن اللغة نفسها) .

خامسًا: الوظيفة المرجعيَّة : وهي التي تحدد العلاقة بين المرسلة والغرض الذي يرجع أو تعود إليه تلك الرسالة .

سادسًا : الوظيفة الشعرية : وتشير هذه الوظيفة إلى الرسالة المعدة لذاتها، كالقصائد الشعرية .

وقد حوت النظرية التواصلية عند جاكبسون على مجموعة من المبادئ، ومنها: أنّ الإشارة اللغوية لا تقدم ولا يمكن أن تقدم كل المعنى الذي تحويه، وأنَّ نسبة كبيرة من المعنى تفهم من السياق، وهذا المبدأ يعد النقطة الأساسية في هذه النظرية .

ومن المبادئ الأخرى التي تناولتها هذه النظرية مبدأ (التخاطب الداخلي و التخاطب الخارجي) فكما أنَّ التخاطب الخارجي بين شخصين مهم في إيصال الأفكار إلى الآخرين، فكذا يعد التخاطب الداخلي، والذي يكون بين الشخص وذاته أمرًا مهمًا في دراسة الأفكار بعيدًا عن رقابة الآخرين، ومن تلك المبادئ أيضًا (التواصل بالكلام والتواصل بالكتابة) وقد كان من العلماء من لا يفرق بينهما في عملية التواصل(١) إلا أنَّ جاكبسون عدَّ الكتابة تعبيرًا عن اللغة المحكية عن طريق إشارات خطيَّة، في حين أنّ التواصل الكلامي يشمل عمليتي بث واستقبال مرسلة لها مدلولات معينة، تكون بين فردين، وتحدد بالتواضع والاصطلاح المسبق بين المرسل والمرسل إليه، فتُحكَم عملية التواصل تبعًا للدوافع النفسية، وتحقق عبر القناة السمعية.

(١) ومنهم اللساني الدنماركي لويس هل مسليف المنظر الرائد لمدرسة كوبنهاغن.

أما ما يخص النص ، فإننا وبالعودة إلى معاجم اللغة نرى مادة نصص تشير إلى أنَّ : " النص: رفعك الشيء. نص الحديث ينصه نصًا: رفعه. وكل ما أظهر، فقد نُصَّ. يقال: نص الحديث إلى فلان أي رفعه، وكذلك نَصَصْتُه إليه. ونصت الظبية جيدها: رفعته... نَصَصْتُ المتاع إذا جعلت بعضه على بعض. وكل شيء أظهرته، فقد نصصته "[١] . وبهذا نرى أنَّ دلالة النص لغة تشير إلى الظهور والارتفاع.

و يعد تعريف النص اصطلاحًا من الصعوبة بمكان، إذ نرى العديد من التعريفات له، وأشار إلى ذلك كل من كتب عن النص، وقد عرفه سعيد بحيري بعد أن ساق العديد من التعريفات للنص ليخلص إلى أنه : " حدث اتصالي تتحقق نصيته إذا اجتمعت له سبعة معايير، وهي : الربط، والتماسك ، و القصدية، والمقبولية، والإخبارية، والموقفية، والتناص "[٢]، ويرى الأزهر الزناد أنَّ النص : " علامة كبيرة ذات وجهين : وجه الدَّال، ووجه المدلول، فالنص نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض "[٣].

ولكن هل النص محدود – أقصد من حيث عدد الألفاظ – أم غير محدود ؟ يقول فيصل صفا : " النص قد يصدق في الكلمة، وفي الجملة، وفي التركيب، فليس النص وحدة تختلف عن الكلمة أو الجملة اختلافًا كميّا... فليس بالطول أو الحجم

---

(١) ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ، **لسان العرب** ، تحقيق: عبد الله الكبير ومحمد أحمد وهاشم الشاذلي ،ط١، القاهرة، دار المعارف ، ١٩٨١م ، (نصص).

(٢) بحيري، سعيد ، **علم لغة النص " المفاهيم والاتجاهات "** مكتبة لبنان ، بيروت ، الشركة المصرية العالمية ، مصر ، ط١، ١٩٩٧م، ص ١٤٦.

(٣) الزناد ، الأزهر ، **نسيج النص " بحث في ما يكون به الملفوظ نصًا "** المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ، ط١، ١٩٩٣م ، ص ١٢.

يتحدد النص . إن الفارق بين النص وغير النص فارق نوعي يتمثل في أن النص يتميز بالاكتمال، والاستقلال، بصرف النظر عن عدد عناصره اللغوية "[١].

فالنص_ بناءً على ما سبق – ذو علاقة بالجملة فقد يكون النص هو الجملة، ولهذا يقول بشير إبرير: " يمكن أن نبحث عن مفهوم النص في التراث من خلال التطرق إلى جملة من المفاهيم مثل : الجملة والكلام و القول والتبليغ والخطاب والنظم، وكلها مفاهيم أساسية في النظرية اللغوية العربية بعامة، والأسس النظرية المكونة للنص بخاصة "[٢].

ويفرق فيصل صفا بين الجملة والنص من خلال الارتباط بمقام خارجي، والذي يميز النص عن الجملة، فيقول : " أما النص فهو شيء مختلف عن الجملة غير المرتبطة بمقام خارجي عنها ؛ فالجملة التي يعتني بها (نحو الجملة) ليست جملة نصًا ؛ فحين يكون التركيب مؤديًا لمعنى مستقل مستفاد فقط من العناصر اللغوية الملفوظة أو المكتوبة، يكون جملة، لكن حين يصل المتلقي إلى معنى مفيد مستقل لا تؤديه العناصر اللغوية الملفوظة أو المكتوبة وحدها يكون لدينا – في هذا الحال – نص لا جملة "[٣]، وهذا ما نريد أن نجليه في هذا البحث .

---

(١) صفا ، فيصل : **نحو النص في النحو العربي (دراسة في مجموعة من العبارات النحوية الشارحة) المجلة العربية للعلوم الإنسانية** ، جامعة الكويت: العدد٩٢/ ٢٣،ص٨١_٨٢.

(٢) إبراير ، بشير ، **مفهوم النص في التراث اللساني العربي** ، مجلة جامعة دمشق ، مجلد ٢٣، العدد الأول ، ٢٠٠٧م ، ص ٨٥.

(٣) صفا ، فيصل : **نحو النص في النحو العربي (دراسة في مجموعة من العبارات النحوية الشارحة)** ص ٨٥_٨٦.

أما اختياري لابن يعيش نموذجًا لهذا البحث، فلأنه يعدّ عالمًا سطع نجمه في سماء النحو العربي، ويظهر في كتابه (شرح المفصل) القدرة العالية لديه في فهم اللغة من جوانبها المختلفة ؛ إذ لا يعدُّ هذا الكتاب من كتب النحو التعليمي، وقد أظهر ابن يعيش عناية واضحة بالجانب التخاطبي في كثير من مواضع كتابه، ولهذا رأينا أن يكون نموذجًا نتّكئ عليه فيما نريد أن نبيّن من تنظير العلماء لمسألة التخاطب ؛ لنشير بذلك إلى سبق علماء النحو العربي في هذا المجال .

المبحث الأول

قطبا التخاطب (المتكلم والمخاطب)

إنَّ أي دراسة تتناول المستوى التخاطبي لا بدَ لها من إيلاء المتكلم والمخاطب الأهمّية الكبرى ؛ ذاك أنَّ العملية التخاطبية لا تتم إلا بوجودهما، فهما عماد هذه العملية .

ونحونا العربي يزخر بتلك العبارات التي تشير إلى المخاطب و المتكلم، ويظهر ذلك جليًا عند المشافهة الكلاميَّة أو التخاطب، يقول سيبويه : " والمشافهة لا تكون إلا من اثنين "[١]فسيبويه يطلق على الحدث الكلامي الدائر بين اثنين مصطلح(المشافهة) ولم يقل : كلامًا ؛ لأنَّ الكلام يمكن أن يكون ذاتيًا، إذ يمكن أن يكلّم الشخص نفسه، و المشافهة لا تتم إلا بوجود طرفي التخاطب .

ويظهر هذا الفهم أيضًا عند أبي هلال العسكري إذ يقول : " الفرق بين الكلام والتكليم، أنَّ التكليم تعليق الكلام بالمخاطب، فهو أخص من الكلام ؛ وذلك أنَّه ليس كل كلام خطابًا للغير "[٢]و في هذا التوضيح تأكيد على أنَّ مفهوم التخاطب_ والذي عبر عنه بالتكليم_ يختلف عن مفهوم الكلام، فالتخاطب لا بدَّ له من توافر عدة شروط حتى تتم عملية التواصل، وتحقق غرضها المنشود، و تلك الشروط منها ما يتعلق بالمخاطب وأحواله، ومنها ما يتعلق بالمتكلم، وأخرى تدور حول الظروف التي تتم بها تلك العملية، من ظروف زمانية ومكانية .

---

(١) سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: **الكتاب** ، تحقيق : عبد السلام هارون،ج١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ م ،ص٣٩٢.

(٢) العسكري ، أبو هلال : **الفروق في اللغة** ، تحقيق : حسام الدين القرشي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ص ٢٣_٢٤.

إنَّ مناط كلامنا في هذا المقام نعتمد فيه على ما قاله ابن يعيش في شرح المفصل؛ لنتلمس تلك العبارات التي تظهر العناية بالمخاطب والمتكلم، ونرى من خلالها شروط العملية التواصلية أو التخاطبية . وقبل الحديث عن تلك العناية، لابد لنا أن نشير إلى أنَّ ابن يعيش استعمل مجموعة من المصطلحات الدالة على طرفي التخاطب، إذ أطلق على المتكلم عدة ألفاظ هي : المتكلم، و المخاطِب، و الحاضر، إلا أنَّ الأكثر استعمالًا لديه هو لفظ (المتكلم)، ولم يستعمل لفظ (المخاطِب) إلا مرة واحدة ؛ ولعل ذلك يعود إلى أنّه لا يريد الخلط بين صيغة الفاعل وصيغة المفعول ليجنب القارئ التوهم والخلط، فهو لم يستعمل هذا المصطلح إلا بوجود صيغة المفعول لتتضح هذه من تلك[١]. وأمّا (المخاطَب) فأطلق عليه مجموعة من الألفاظ أيضًا هي : المخاطَب، والسامع، والحاضر، وكان أغلب استعماله للفظ (المخاطَب) يليه (السامع)، ونادرًا ما يستعمل لفظ الحاضر، ولعل الألفاظ الدالة على (المتكلم) تشير إلى دلالة واحدة، ويصدق هذا على الألفاظ الدالة على المخاطب .

وفي باب الحديث عن شروط العملية التخاطبية يقول ابن يعيش : " إنَّ الغرض بالنداء التصويت بالمنادى ليُقبِل، والغرض من حروف النداء امتداد الصوت، وتنبيه المدعو، فإذا كان المنادى متراخيًا عن المنادي أو معرضًا عنه لا يقبل إلا بعد اجتهاد أو نائمًا قد استثقل في نومه، استعملوا فيه جميع حروف النداء، ماخلا الهمزة"[٢].

---

(١) ابن يعيش ، موفق الدين :**شرح المفصل** ، ج٧، بيروت : عالم الكتب ، ص٦٩، وذلك بقوله : (فالمخاطَب ، والمخاطِب في المفعول الأول سواء) .

(٢) السابق ، ٢/ ١٥.

لقد ذكرنا سابقًا أنَّ العملية التخاطبية لا بدَّ لها من عدة شروط، والتي بمجموعها تتم هذه العملية، وتتحقق الفائدة، وفي النص السابق يبين ابن يعيش أنّ الغرض من النداء جلب المخاطَب إلى دائرة التخاطب، إذ إنّ المتكلم لم يقم بهذه العملية من رفع الصوت إلا رغبة منه في إيصال المعلومة المبتغاة إلى المتلقي، وذلك لأنَّ المتلقي (المخاطب) ليس في حال تمكن المتكلم من التخاطب معه بسهولة ويسر، فشروط التخاطب ناقصة ولم تكتمل بعد.

إنَّ الحضور الجسدي شرط مهم لجعل التخاطب مفهومًا، وفي هذا توحد للمكان والزمان، ولعل قائلًا يقول : لم يعد الحضور الجسدي مهمًا في عصرنا الحاضر لتمام عملية التخاطب إذ إنَّ وسائل الاتصال الحديثة ألغت هذا الشرط، لكنَّ ذلك لا يعني إلغاءه بالكلية أو عدم أهميته، فإن كان الاتصال بنقل الصورة فهو حضور جسدي، وإن لم يكن كذلك فالفائدة التخاطبية لا تكون كاملة حينئذٍ، لأنَّ الكثير من المعاني تنقل عن طريق الجسد وتوحد المقام المكاني .

وفي قوله : متراخيًا و معرضًا دلالة واضحة على تلك الأحوال التي تلم بالمخاطَب، والتي لا تُمَكِّن المتكلم من بدء عملية التخاطب ؛ وذلك لأنَّ المخاطَب لا يمكن أن يستوعب ما يقوله المتكلم، وبالتالي لا تتحقق الفائدة، فالمخاطب قد يكون في حالة نفسية لا يفهم معها ما يقال، وقد يكون حزينًا أو تعبًا إلى غير ذلك، ومن هنا كان لا بدَّ من الحضور الذهني للمتكلم زيادة على الحضور الجسدي، فالنائم مثلًا حاضر إلا أنَّ ذهنه غائب، وعليه يؤكد ابن يعيش أنه يمكن تجاوز التركيب النحوي أو الاستعمال اللغوي لتحقيق هذا الشرط، فقال : " فإذا كان المنادى متراخيًا عن المنادي أو معرضًا عنه لا يقبل إلا بعد اجتهاد أو نائمًا قد استثقل في نومه، استعملوا فيه

جميع حروف النداء، ماخلا الهمزة " أي يمكن استعمال جميع حروف النداء ما كان منها للقريب أو للبعيد لغرض جلب المخاطب على أي حال كان .

إنَّ الشروط السابقة تتعلق بالمخاطب وأحواله قبل بدء عملية التخاطب، بيد أنَّ هناك أحولًا تعتري المخاطب أثناء التخاطب، تجعل المتكلم يمارس نوعًا من المعالجة اللغوية حيالها . يقول ابن يعيش في سياق حديثه عن فائدة التأكيد التي تمكِّن المعنى في نفس المخاطَب، وتزيل إمكانية الخطأ في التأويل : " إذا قلت : جاء زيدٌ نفسه أو عينه، فيزيل التأكيد ظنَّ المخاطب من إرادة المجاز، ويؤمن غفلة المخاطب "[1].

لقد بين ابن يعيش في قوله السابق اهتمام المتكلم بوصول الفائدة المرادة للمخاطب فجاء بالتأكيد احترازًا من الغفلة أو الشك، والتي هي أحوال عارضة أو مستقرة فيه، وهذه الأحوال يشعر بها المتكلم أثناء الحدث الكلامي، إذ إنّ الإشارات الجسدية للمخاطب من غفلة أو شرود ذهن أو قلة استيعاب أو شك أوحت للمتكلم بأهمية التأكيد، ولذا قام به .

ونجد في كثير من الأحيان توافر جميع الشروط لعملية التخاطب، ويكون المخاطب حاضر الذهن إذ ذك، إلا أنَّ الإشكال يقع لدى المخاطب من العبارة اللغوية ذاتها، وذلك لتعدد الاحتمالات الدلالية فيها، فالتركيب اللغوي يساعد على ذلك، وعليه فلا تصل الفائدة المرادة للمخاطب، يقول ابن يعيش عند حديثه عن حذف الواو من العدد المركب : " وربما احتاجوا إلى ذلك في بعض الاستعمال ؛ وذلك أنّك لو قلت : أعطيت بهذه السلعة خمسة و عشرة، جاز أن يتوهم المخاطب أنهما صفقتان أعطى بهما مرة خمسة ومرة عشرة، فإذا ركبت زال هذا الاحتمال، وارتفع اللبس،

(١) شرح المفصل ، ٣/ ٤١ .

وتحقق المخاطب "[١]. ومن هنا نرى أنَّ المتكلم يجب أن يكون حريصًا على استعمال العبارة اللغوية التي توصل فائدته للمخاطب بعيدًا عن اللبس والاحتمال، مع مراعاة حال المخاطب ؛ فالمخاطب محل اهتمام المتكلم، ولذا فهو يراعي جميع الملابسات الواقعة في دائرة الحدث الكلامي .

ومن السابق نرى أنَّ دائرة الاهتمام بالمخاطب أوسع منها بالمتكلم، يقول الدكتور نهاد الموسى : " ويمثل المخاطب أحد أعمدة الموقف الكلامي "[٢]، ولعل ذلك يعود إلى أنَّ المتكلم على وعي تام بالرسالة اللغوية التي يحملها، والتي يريد نقلها للمخاطب، فهي ذات وجود مسبق لديه فـ " المتكلم من وقع الكلام [منه] بحسب أحواله من قصده وإرادته واعتقاده وغير ذلك من الأمور الراجعة إليه "[٣].إنَّ المقصود من العملية التخاطبية حصول الفائدة للمخاطب، وتحققها لديه، هذا هو الذي جعل كفته ترجح قليلًا، فكما أنَّ القصد مرتبط بالمتكلم فالفائدة مرتبطة بالمخاطب، فإنْ لم تتحقق الفائدة لديه لم تكن هناك أي فائدة من العملية التخاطبية .

---

(١) السابق ، ٤/ ١١٣، وانظر أيضًا : ٦/ ٨٤، و ٧/ ٥٩.

(٢) الموسى ، نهاد : **الصورة والصيرورة" بصائر في أحوال الظاهرة النحوية ونظرية النحو العربي "** ، ط١، عمان : دار الشروق ، ٢٠٠٣م ، ص ١٢٨.

(٣) الخفاجي ، ابن سنان : **سر الفصاحة** ، تحقيق: عبد المتعال الصعيدي ، القاهرة : مكتبة علي صبح ، ١٩٩٦م ، ص ٤٤.

المبحث الثاني

السياق والتخاطب

إنَّ الإطار الاجتماعي والثقافي للخطاب هو ما يسمى عند علماء اللغة_ وخاصة البلاغيين – بالسياق أو المقام أو الحال، وهذا الإطار يشكل فضاء التخاطب، ومرجعيته التي من خلالها يتم وضع المعنى من مادة اللفظ، أو منها ومن خارجها[١] وذلك بفرض من السياق الخاص بالرسالة اللغوية .

لا ريب أنَّ البلاغيين العرب جعلوا الاهتمام بالسياق البلاغة نفسها، فشاعت العبارة المشهورة (لكل مقام مقال) وفي هذا يقول الجاحظ : " ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات؛ فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقامًا، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[٢]. وفي هذا الكلام موازنة بين جميع الظروف التخاطبية، سواء كانت مقامية، أم مقالية، ليخرج الكلام على وجهه الصحيح ويؤدي معناه المطلوب .

واهتم عبد القاهر الجرجاني أيضًا بالسياق اللغوي من حيث بناء الكلمات وترابطها ؛ لإحداث فكرة أو معنى ما، مراعيًا بهذا كله مقتضى الحال، وقد قال في هذا

---

(١) وأقصد هنا أنَّ التخاطب الكلامي غالبًا ما ترافقه رموز غير لغوية تحمل دلالة كما اللغة المنطوقة (السيميائية) .

(٢) الجاحظ ،أبو عثمان عمرو بن بحر: **البيان والتبيين** ، تحقيق: عبد السلام هارون ،ج١، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٦م ، ص ١٢٨_١٢٩.

السياق: " ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"[١]فالجرجاني يرى أنَّ الكلام المنطوق بصورة منظمة ما هو إلا المستوى الثاني من الكلام، ويشبه أن يكون النظم مرادفًا لمفهوم السياق[٢].

وفي العصر الحديث احتل السياق مكانة مرموقة في الدراسات اللغوية فاستقل بنظرية لغوية كان من روادها (Firth) و (Lyons) و (Halliday) وغيرهم، مصرحين بأنَّ للسياق الدور الأكبر في تحديد المعاني، فالكلمة لا يمكن أن تظهر دلالتها إلا بتجاورها مع غيرها من الكلمات داخل السياق .

ويجعل (Himes) دور السياق في الفهم محصورًا من جهة عدد المعاني الممكنة، وأنه يساعد من جهة أخرى على تبني المقصود[٣]، ويقول (Barhelil) : " يختلف عمق السياق المقامي الضروري لفهم كامل لأنواع الجمل المختلفة بطبيعة الحال من جهة إلى أخرى، وليس لدينا إلى الآن إلا فهم محدود جدًا للكيفية التي تمكننا من تحديد عمق السياق المقامي اللازم لذلك الفهم "[٤].

وبالعودة إلى ابن يعيش فإننا نجد الكثير من المواضع التي تتناول تركيبًا معينًا والتي يشير فيها إلى دور السياق في تفسير التراكيب و توضيحها، ومن ذلك حديثه

---

(١) الجرجاني ، عبد القاهر : **دلائل الإعجاز** ، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي ، القاهرة : مكتبة القاهرة ، ١٩٦٩م ، ص ٩٣ .

(٢) استيتية ، سمير : **منازل الرؤية** ، عمان : دار وائل ، ٢٠٠٣م ، ص ١٢٩.

(٣) براون ، ج ب و بول ، ج : **تحليل الخطاب** ، ترجمة: محمد لطفي الزليطي و منير التريكي ، المملكة العربية السعودية: النشر العلمي والمطابع ، ١٩٩٧م ، ص ٣٩.

(٤) السابق ، ص ٧٠ .

عن مسوغات الابتداء بالنكرة المخصّصة باستفهام أو نفي، يقول ابن يعيش : "وقالوا في المثل : شرٌ أهر ذا ناب[١]، فالابتداء بالنكرة فيه حسن ؛ لأنّ معناه : ما أهر ذا ناب إلا شر ... ومعناه أنهم سمعوا هرير كلب في وقت لا يهر مثله فيه إلا لسوء ظن، ولم يكن غرضهم الإخبار عن شر، وإنما يريدون الكلب أهرَّه شرٌ، وإنما كان محمولًا على معنى النفي ؛ لأنَّ الإخبار به أقوى "[٢].

ففي هذا المثال نرى أنَّ أصل التركيب هو : ما أهر ذا ناب إلا شر، فحذف منه حرف النفي وأداة الاستثناء، ثم قدم لفظ الشر النكرة، والموضِّح لهذا التركيب هو السياق المقامي الذي أُطلق هذا المثل لأجله ؛ إذ ليس من المعهود قيام الكلب بهذا الفعل في هذا الوقت، ولو قام به في وقت آخر معهود لما عبِّر عنه بهذا التركيب، وعليه فالسياق الاجتماعي هو الذي وجه هذا التخاطب اللغوي، و قد ألقى المتكلم هذه الرسالة اللغوية مع عدم يقينه بالشر إلا أنَّ الهرير دليل على حدوث أمر ما، والشر أحد هذه الاحتمالات، وأقواها، ولذا تم الإخبار عنه، فإن لم يكن هو فما بعده أهون منه .

ونلحظ من الكلام السابق جعل ابن يعيش الإخبار هنا عن هرير الكلب لا عن الشر بداية، ولعل ذلك لأن (الابتداء) معلوم لدى المتكلم، وهو (الشر) وقد يكون معلومًا أو غائبًا لدى المخاطب، فإن سمع المخاطب هرير الكلب فالأمر إخبار فيه تأكيد لِمَ ظَنَّهُ، وإن لم يسمع الهرير فهو إخبار وتنبيه في آن معًا .

---

(١) انظر المثل في : النيسابوري ، أبو الفضل أحمد بن محمد، **مجمع الأمثال** ، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت،١/ ٣٧٠، يضرب في ظهور أمارات الشر ومخايله.

(٢) شرح المفصل، ١/ ٨٦.

وأما المثل (أ أعور وذا ناب)[١]، فقد ورد في باب الحال، وهو مثل قيل في حرب بني أسد ؛ حيث استقبل رجل من بني أسد بعيراً أعور فقال هذا المثل، وفيه يقول ابن يعيش : " أتى بلفظ الاستفهام، ولم يرد أن يسترشدهم ليخبروه عن عوره، لكنه حقق ذلك حذره، وانهزموا، والفعل الناصب لأعور وذا ناب محذوف تقديره (أتستقبلون) **ودلَّ عليه الحال المشاهدة** "[٢].

لقد استعمل في هذا التركيب أسلوب الاستفهام، ومعناه الإخبار ؛ ليس الإخبار عن البعير، وإنما هو إخبار عن أمر يستنتج من التركيب المُقَال ؛ لأنَّ المقام قد دلَّ على ذلك، فالجميع يرى هذا البعير، وعليه فلا قيمة لهذا الإخبار في هذا الوضع الحربي، إلا أنَّ الرواسب الفكرية هي التي وجَّهت هذا التخاطب (التطيّر) إذ هو جزء من نص آخر، أو لنقل هو (بنية سطحية لبنية عميقة)، فبهذه البنية السطحية فهم القوم أنهم لن يتمكنوا من النصر، فالتشاؤم عادة اجتماعية مكنتهم من قراءة ما وراء النص الملفوظ .

والملاحظ أنَّ هذه التعابير هي أمثال قيلت ضمن سياق ما، وفي هذا يقول الدكتور فيصل صفا : " تعد الطريقة التي استقر استعمالها في التعبير عن معنى ما سياقًا عرفيًا، والعرف مظهر اجتماعي، والوظيفة الاجتماعية أهم وظائف اللغة في أنظار الدارسين، ولما كان التعبير _قصر أو طال _ يؤدي غرضه في السياق الذي يستعمل

---

(١) لم أجد المثل في كتب الأمثال وهو في: ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل ، **المحكم والمحيط الأعظم** ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ٢٠٠٠ م ، (عور) ، **وابن منظور** ، لسان العرب (عور) .

(٢) شرح المفصل ، ٢/ ٦٩.

فيه، كان التعبير تركيبًا مرهونًا _في أداء وظيفته _ بهذا النوع من السياقات، فإذا كان هذا السياق هو سياق ضرب المثل، أو سوق الكلام سوق الأمثال، فالسياق سياق اجتماعي "[١].

إنَّ السياق الاجتماعي أو بالأحرى العرف الاجتماعي يدل في كثير من الأحيان على دلالة خفيَّة تصل للمخاطب رغم خلو التركيب من اللفظ الدال على تلك الدلالة، ولهذا يقول ابن يعيش : " اعلم أن المضاف قد حذف كثيرًا من الكلام، وهو سائغ في سعة الكلام، وحال الاختيار ؛ إذا لم يُشكِل، وإنما مسوغ ذلك الثقة بعلم المخاطب، إذ الغرض من اللفظ الدلالة على المعنى، فإذا حصل المعنى بقرينة حال أو لفظ آخر استُغْنِيَ عن اللفظ "[٢] وضرب ابن يعيش على هذا الكلام مثلًا قوله تعالى : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾[٣].

إنّ الأصل في تركيب الآية السابقة هو (واسأل أهل القرية) فحذف المضاف وبقي المضاف إليه ؛ ذاك أنَّ القرية مجردة عن السؤال وهذا من اختصاص العاقل، و لعل في ذلك إطالة في الكلام لا جدوى منها، وهذا الربط مظهر اجتماعي، قرن الدلالات مع بعضها، مما يجعل لفظة ما تستدعي أخرى، فيفهم المخاطب الدلالة دونما اعتراض على التركيب .

تعدّ الحالات السابقة مظهرًا اجتماعيًا عامًا من التواصل في فهم التخاطب، فهذا الربط الدلالي استقرّ في ذهن جميع أفراد البيئة اللغوية الواحدة، و في المقابل فإنَّ

---

(١)صفا ، فيصل : **نحو النص في النحو العربي (دراسة في مجموعة من العبارات النحوية الشارحة)** ص ٩٧.

(٢)شرح المفصل ، ٣/ ٢٣.

(٣)سورة يوسف ، آية (٨٢) .

هناك سياقات خاصة لا يمكن أن يتعرف إليها الذهن من خلال اللفظ المنطوق عند أفراد البيئة اللغوية الواحدة، وذلك لأنها لا تمثل عرفًا اجتماعيًا، بل تعد من باب الخبرات أو التجارب السابقة، يقول ابن يعيش : " وجاء من ذلك شيء يسير للثقة بدلالة الحال عليه و إخبار القائل أو معرفة المخاطب، كقول الشاعر:

عَشِيَّةَ فَرَّ الحارِثِيُّون بعدمـــــا قَضَى نَحْبَه من مُلْتَقَى القومِ هَوْبَرُ[1]

فالمقصود هنا (ابن هوبر) لا (هوبر) ونحن نعلم أنَّ هذه الفائدة مرتهنة بأمرين، الأول: الحال المشاهدة، والثانية : إخبار المتكلم بعد ذكر هذا الخبر، فإن لم يعرف المخاطب الحادثة، فسيكون الفهم على ما هو عليه من نقل ؛ أي فهم ظاهر النص المنطوق، وعليه فستكون الفائدة معلومة مغلوطة، فالتركيب لا يشير إلى الجزء المحذوف ؛ لانتفاء القرينة الدالة، وبالتالي فالسياق الذي أنشئت فيه العبارة اللغوية هو الموجه للتركيب النحوي، والمبيِّن للفائدة الصحيحة .

إنَّ بعض التراكيب اللغوية اقترنت بالحال المشاهدة و المقام المعاش، فلا يحل تركيب مكان الآخر، ولو أنَّ الدلالة اللغوية الظاهرة للتركيب لا تمنع من ذلك، بل المانع له العرف الاجتماعي، يقول ابن يعيش : " هذه الأسماء _يقصد أسماع الأفعال والأصوات _ إنما الأمر للمخاطب ؛ لأنَّ أمر المخاطب يكتفي معه بشاهد الحال ...

---

(١) شرح المفصل، ٣/ ٢٤. والبيت لذي الرّمّة : **الديوان**، تقديم: أحمد حسن بسج ، ط١، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩٥م ص ١١٢، و ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم : **لسان العرب** ، تحقيق: عبد الله الكبير ومحمد أحمد وهاشم الشاذلي ، القاهرة: دار المعارف ، ١٩٨١م (هبر)، و السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع** ،تحقيق :عبد الحميد هنداوي ، ج٢، مصر: المكتبة التوفيقية، ص٥١٩.

ومنه قولهم : دعْ، ومعناه : انتعش، يُقال ذلك للعاثر، أو لمن أصابته حادثة "([1]) [٣٢] .

ونرى من النص السابق أن دلالة (دع) هي (انتعش) فلا خطأ في قولها للإنسان السعيد أو الفرح، هذا من الناحية اللغوية المحضة، لكنها عيب يلحق المتكلم من ناحية العرف الاجتماعي، وهي محكومة بسياق معين، فالحال المشاهدة هي التي توجه هذه العبارة دون تلك، فلا يقال لمن أصابته مصيبة (مبارك) كما لا يقال للفرح (عظم الله أجركم) .

(١) شرح المفصل، ٤/ ٣٤.

المبحث الثالث

الحذف والتخاطب

يعلم الدارس للغة العربية أن نظامها يقوم – كما نظر لـه علماؤنـا الأوائـل – على مبدأ العمل، فلقد لاحظوا وجود عنصر التحكم فيها، والذي يظهـر لنـا الأصـل التركيبي الذي يكون عليه الكلام، فإذا ما لوحظ نقص في عناصر التركيـب يعمـد إلى التقدير، وهذا يعني وجود مستويين لغويين ؛ مستوى متحقـق في النطـق، و مسـتوى الأصل وهو ما وراء الظاهر المنطوق، فإذا أُشكل على الإنسان فهم ظاهر النطق عَمَـد إلى الأصل للوصول إلى الدلالة الصحيحة .

فالحذف كما يقول الدكتور عبده الراجحـي : " ظـاهرة مشـتركة في اللغـات الإنسانية حين يميل المتكلم إلى حذف العناصر المكـررة، أو التـي يمكـن فهمهـا مـن السياق "[1]، وقد سبق ابن يعيش إلى هذا الفهم فرأى أنَّ " الغرض من اللفظ الدلالة على المعنى، فإذا حصل المعنى بقرينة حال أو لفظ آخر استغني عن اللفـظ "[2]، فهـي إذن من الظواهر البارزة في اللغات، والمستعملة دونما قلق حيال المخاطب بـأن يسيء الفهم، فهم لا يحذفون إلا وهم يعلمون أن هناك ما يشير إلى ذلك المحذوف .

ولكن ما الذي يجعل المتكلم يقوم بحذف العناصر التي يرى عدم لزومهـا في التركيب ؟ لعل من أوّل تلك الأسـباب، بـل مـن أهمهـا (علـم المخاطـب بالعنصر المحذوف) فما الداعي لذكر أمر يعلمه المخاطب، إن لم يكن للمتكلم غاية مـن ذلـك الذكر مع علم المخاطب به ؟ يقول ابن يعيش في هذا السياق : " قد حـذفوا المسـتثنى

---

(١) الراجحي ، عبده : **النحو العربي والدرس الحديث** ، بيروت : دار النهضة ، ١٩٧٩م ، ص ١٤٩ .

(٢) شرح المفصل،٣/ ٢٣ .

بعد (إلا) و(غير) ... لعلم المخاطب بمراد المتكلم، وذلك قولك : ليس إلا و ليس غير، والمراد : ليس إلا ذاك، وليس غير ذاك "[١]. إذ نلحظ أنَّ المستثنى هنا مقدر باسم الإشارة، وهذا الاسم دليل واضح على أنَّ الحذف جرى في خطاب مباشر عيانًا، أو لمعلوم جرى الحديث عنه سابقًا، فأشار المتكلم إليه، وعرض به عند المخاطب، وما عاد يلزم ذكره ؛ لأنه معلوم لدى المخاطب . وقد أشار المبرد إلى هذا بقوله : " هذا باب ما حذف من المستثنى تخفيفًا، واجتزئ بعلم المخاطب، وذلك قولك : عندي درهم ليس غيرُ، أردت : ليس غيرَ ذلك "[٢].

فالحذف كان من باب التخفيف لعلم المخاطب، فالمهم إيصال الرسالة اللغوية، بأقل جهد من المتكلم، وبأقل عدد من الألفاظ المفهمة .

مرَّ بنا سابقًا أنَّ المضاف يحذف تخفيفًا لعلم المخاطب بالمحذوف، وهو كثير في كلامهم، ومن الحذف أيضًا (حذف الضمير) و الضمير هو جزء من العناصر التي يطلق عليها (الإحالة) وهذه العناصر لا تكتفي بذاتها من حيث التأويل، إذ لا بدَّ من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها[٣]، ومن المواقع التي يحذف فيها الضمير قولهم : مررت بكلٍ والأصل: مررت بكلهم، وفي هذا يقول ابن يعيش : " وإنما يحذف إذا جرى ذكر قوم، فتقول : مررت بكلٍ ؛ أي : بكلهم، ومررت ببعضٍ، أي : ببعضهم، وتستغني بما جرى من الكلام، ومعرفة المخاطب "[٤].

---

(١) شرح المفصل،٢/ ٩٥.

(٢) المبرد : **المقتضب** ، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة ،ج٤،القاهرة : المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ١٩٦٧م ، ص٤٢٩.

(٣) الخطابي ، محمد : **لسانيات النص** ، ط١، بيروت : المركز الثقافي العربي ، ١٩٩١م ، ص ١٦_١٧.

(٤) شرح المفصل، ٣/ ٣٠.

فهذه الجملة إذن جزء من نص سابق جرى الحديث عنه، ولا داعي لتكرار الكلام، ويمثل بما يلي :

كلام يحوي اسمًا ← ضمير (اختصار أو إحالة) ← حذف الضمير (حذف الاختصار)

وعلة الحذف تواصل المخاطب مع المحذوف سابقًا، وعلمه به .

ومنه حذف الألف واللام من الصفة المشبّهة في قولهم : هذا حسنٌ وجهُه، وعلة الحذف أنها من باب الخفة، وعلم المخاطب " تخفيفًا، ولأنه موضع أُمن فيه اللبس لعلم السامع أنه لا يعني من الوجوه إلا وجهه "[١].

هذه الأمثلة وغيرها من الأمثلة التي حذف عنصر ما فيها (لعلم المخاطب) والغالب على المتكلم ألاّ يذكر في كلامه إلا ما كان يعلم أن المستمع يحتاج إلى معرفته ؛ ليتبين الفائدة منه، معتمدًا في ذلك على" قدرة المستمع على استحضار المحذوف إما لوضوحه، وإما لقربه أو لشهرته، فتكون عناية المتكلم بالكلام بحسب حال المستمع من الإدراك، وعلى قدر مشاركته له في بعض الفوائد و المعلومات، فيُضْمِرُ ما علمه المخاطب، ويظهر ما جهله"[٢].

ونجد في نحونا العربي العديد من أمثلة الحذف لبعض عناصر التركيب، لمعايشة المتكلم والسامع معًا للحدث الذي جرى فيه الحذف، ومن ذلك قولهم: القرطاسَ لمن سدد سهمًا نحوه فأصابه، وزيدًا عند رؤية أحدهم يضرب، فيُقال له: زيدًا، أي اضرب زيدًا، وتتكرر هذه الأمثلة عند غالب النحاة في كتبهم .

---

(١)السابق ، ٦/ ٨٤.

(٢)عبد الرحمن ، طه : **التكوثر العقلي**، ط١، الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٨م ، ص ١٥٠ .

يقول المبرد في حذف الفعل في باب القسم : " اعلم أن للقسم أدواتٍ توصل الحلف إلى المقسم به؛ لأن الحلف مضمر مطَّرحٌ لعلم السامع به؛ كما كان قولك: يا عبد الله محذوفاً منه الفعل لما ذكرت لك. و كذلك كل مستغنىً عنه فإن شئت أظهرت الفعل؛ كما أنك تقول: يا زيد عمرًا، أي: عليك عمرًا: وتقول: الطريقَ يا فتى، أي ظلّ الطريق، وترى الرامي قد رمى، فتسمع صوتًا فتقول: القرطاس والله، أي: أصبت "(١).

ولقد بين النحاة إلى أنَّ هذا النوع من المستوى اللغوي لا يكون إلا في التخاطب دون الغيبة لدلالة الحال على ذلك ؛ وفي هذا يقول ابن السراج : " هذا الباب – يقصد الإضمار _ إنما يجوز إذا علمت أنَّ الرجل مستغنٍ عن لفظكَ بما تضمره، فمن ذلك ما يجري في الأمر والنهي، وهو أن يكون الرجل في حال ضربٍ فتقول : زيداً ورأسَهُ، وما أشبه ذلك، تريد : اضربْ رأسَهُ وتقول في النهي : الأسدَ الأسدَ، نهيتهُ أنْ يقربَ الأسد، وهذا الإِضمار أجمع في الأمر والنهي وإنما يجوز مع المخاطب ولا يجوز مع الغائب"(٢).

ولهذا نجد الدكتور نهاد الموسى يقول : " ويشبه علم السامع أن يكون مسوِّغًا ثانيًا للحذف، وهو يجري في كتبهم كالأصل الثابت المتواتر"(٣) واعتمد الدكتور في استنتاجه هذا على قول ابن السراج : " والمحذوفات في كلامهم كثيرة، والاختصار في كلام الفصحاء كثير موجود إذا آنسوا بعلم المخاطب ما يعنون"(٤).

---

(١) المقتضب ، ٢/ ٣١٨.

(٢) ابن السراج ، أبو بكر: **الأصول في النحو** ، تحقيق: عبد الحسين الفتلي ،ج٢، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٨م ، ص٢٤٧.

(٣) الصورة والصيرورة ،ص ١٢٨.

(٤) الأصول في النحو ، ٢/ ٣٢٤.

المبحث الرابع

التخاطب والفائدة والقصد

كثيرًا ما يرد مصطلحا الفائدة والقصد عند النحاة، زيادة على أنَّ مصطلح القصد يعدّ من المصطلحات المشتركة لدى كثير من العلوم، " فالقصد و المقصديَّة من المفاهيم التي نجدها عند علماء النفس، والتداوليين، وفلاسفة اللغة "[١] بل إنَّ هذا المصطلح مهم جدًا لدى علماء أصول الفقه لقولهم : مقاصد الشريعة .

والفائدة ترد كثيرًا عند وصف تركيب ما بأنه (مفيد) أو (تحصل به الفائدة) أو على النقيض من ذلك (غير مفيد) أو (لا تتم به الفائدة) فهذا المصطلح ما هو في الحقيقة إلا حكم يطلقه النحوي على تركيب معين بأنه مقبول أو غير مقبول، ولهذا يقول الدكتور نهاد الموسى : " ويمثل المخاطب أحد أعمدة الموقف الكلامي، وتصبح فائدة المخاطب معيارًا لصحة الكلام "[٢]، وهذا ما أكَّده الدكتور فيصل صفا عندما تحدث عن الإحالة إلى مقام الفائدة في التفسير بحيث يكون النص مفيدًا عند أحدهم وغير مفيدٍ عند الآخر و أنَّ مرجع ذلك إلى السياق الذي ارتبط به النص، فقال : " إنَّ الإشكال ذو صلة بالجانب الاتصالي، بالإضافة إلى الجانب النحوي، فحصول فائدة لدى المتلقي تجعل التركيب مقبولًا وعدم حصولها يجعل التركيب غير مقبول "[٣].

ونرى عند ابن يعيش تكرارًا لمصطلحي القصد والفائدة، أو غاية المتكلم، ومن ذلك حديثه في باب العطف، إذ قال : " والأكثر في استعمال (أو) في الخبر أن

---

(١) مفتاح ، محمد : **تحليل الخطاب الشعري** ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، ١٩٨٥م ، ص ١٦٢ .

(٢) الصورة والصيرورة ،ص ١٢٨ .

(٣) نحو النص ، ص ٩٦ .

يكون المتكلم شاكًا لا يدري أيها الجائي و لا أيها المضروب – في جملتي : جاءني زيد أو عمرو، وضربت زيدًا أو عمرًا – والظاهر من السامع أن يحمل الكلام على شك المتكلم، و قد يجوز أن يكون المتكلم غير شاك و إنما أراد تشكيك السامع بأمر قصده، فأبهم عليه وهو عالم "[1].

ونرى من النص السابق أنّ غايات المتكلم قد تعددت، وهو المتحكم بنوع الفائدة التي يريد إيصالها للسامع، فمرة يجعله في مقام التخيير، ومرة يجعله في مقام الإيهام ، وثالثة في مقام الإباحة .

و يرد هنا السؤال الآتي : هل الفائدة في حالة شك المتكلم أو محاولة إيهام المخاطب تعد فائدة ؟ ولعل الجواب عن هذا أن نقول: إن الفائدة المتحصِّلة لدى السامع أو المخاطب مرتهنة بقصد المتكلم وغايته، فإن تحقّق القصد حصلت الفائدة، وليس يعنينا أن تكون الفائدة واقعية أو صادقة، بل يعنينا أن نعلم المتكلم قصد أمرًا ما ووصل هذا القصد بتحقق الفائدة لدى المخاطب، بعيدًا عن مفهوم الفائدة لغة بأن تكون كل ما يفيد على وجه الحقيقة .

ونلمس عند ابن يعيش تقسيمًا للفائدة على نحو يجعلها مرتبطة بالأصل التركيبي، فالفائدة التامة هي الفائدة التي تصل إلى المتلقي على أساس التخاطب بالأصل التركيبي كاملًا، لا على أساس ربطها بغاية المتكلم، فقد قال في باب الحديث عن الأفعال المتعدية إلى أكثر من مفعول : " وفي هذه المسألة ثلاثة أوجه ؛ منها الاكتفاء بالفاعل مع الفعل، فتقول : أعطيت وكسوت ؛ لأنّ الفعل والفاعل جملة يحسن السكوت عليها، ويحصل بها فائدة للمخاطب، وذكر المفعول فائدة أخرى تزيد

(١)شرح المفصل، ٨/ ٩٩_١٠٠.

على إفادة الجملة، فإن ذكرت المفعولين كان تناهيًا في البيان و الفائدة بذكر المعطي وهو الفاعل، ومن أعطى وهو المفعول الأول، وما أعطى وهو المفعول الثاني، ولك أن تقتصر على أحد المفعولين ويكون توسطًا في البيان والفائدة، فتقول : أعطيت درهمًا، فأفدت المخاطب جنس ما أعطيت من غير تعيين مَنْ أعطيت "[١].

إذن فالفائدة على ثلاثة مستويات هي : الفائدة القاصرة أو البسيطة، والفائدة المتوسطة والفائدة التامة، وهذا التقسيم يظهر لنا أن الفائدة يمكن أن تتجزأ كما يمكن أن تتعدد، فالمتكلم عندما قال : أعطيت، أوصل فائدة العطاء المطلق دون تحديده لـ (مَن) أو لـ(ما) فيجعل المخاطب تائهًا في معرفة المعطَى وكميَّة العطاء، وأما قوله : أعطيت زيدًا، فكانت الغاية تحديد المعطَى دون ذكر لكمية العطاء، و الغاية هنا متعددة فلعله خجل من مقدار العطاء، أو مظهرًا لحاجة المعطَى وضعفه أو غير ذلك، وبقوله : أعطيت زيدًا درهمًا كانت الفائدة تامة لا حاجة لإيقاع المخاطب في بحر الاحتمالات، والغاية عند المخاطب حددت المعطَى والمقدار، والفائدة المرجوة تَكْمُن في صدر المتلقي، إذ يمكن أن يكون قصده حث الناس على العطاء مهما كان قليلًا، أو أن ينبه إلى أنَّ زيدًا شخص فقير بحاجة للعطاء، أو غير ذلك .

وفي باب المبني للمفعول يقول ابن يعيش : " وقد يترك الفاعل اختصارًا؛ لأن يكون غرض المتكلم الإخبار عن المفعول لا غير "[٢] ويقول أيضًا عن حروف التنبيه : " اعلم أن هذه الأحرف معناها تنبيه المخاطب على ما تحدثه به، فإذا قلت : هذا عبدالله منطلقًا، فالتقدير : انظر إليه منطلقًا، أو انتبه عليه منطلقًا، فأنت تنبه المخاطب

(١) شرح المفصل، ٧/ ٨٢_٨٣.

(٢) السابق، ٧/ ٧٠.

لعبدالله في حال انطلاقه، فلا بدَّ من ذكر منطلقًا ؛ لأنَّ الفائدة بـه تنعقـد، ولم تـرد أن تُعرِّفه إياه، وهو يُقَدّر أنه يجهله "[١]، فهذه النصوص تأكيد لما سبق من أنَّ الفائدة لدى المخاطب مرتهنة بقصد المتكلم .

وبقي أن نشير إلى أمر مهم قعد له النحاة وهو أنَّ الأصل في الفائدة أن تكون صادرة عن إرادة من المتكلم، فما تتحصل لدى سامع ما من فائدة غير مقصودة ؛ كمن يسمع كلامًا من نائم، أو من فاقد للوعي لا تعد فائدة، يقول ابن يعيش : " ألا ترى أنَّ إنسانًا قد يتكلم بكلام مفيد، وربما فعل أفعالًا منتظمة وهو نائم أو ساهٍ، فلم يكن فيـه غرض، فلم يكن في فعله دلالة على مفعول له "[٢]، وقد وضح التهانوي هـذا الشرـط عند النحاة، فقال : "إنَّ أهل العربية يشترطون القصد في الدلالة ؛ فما يفهم مـن قصـد من المتكلم لا يكون مدلولًا للفظ عندهم، فإنَّ الدلالة عندهم هـي فهـم المقصـود لا فهم المعنى مطلقًا بخلاف المنطقيين "[٣].

وفي هذا يقول طه عبد الرحمن : " إنَّ المنطوق به لا يكـون كلامًـا حقًـا حتـى تحصل من الناطق إرادة توجيهه إلى غيره ؛ وما لم تحصل منه هذه الإرادة، فلا يمكن أن يعد متكلمًا حقًا، حتى ولو صادف ما نطق به حضور من يتلقفه، مقصـودًا بمضـمونه هو، أو مقصودًا به غيره بوصفه واسطة فيه ... فالمتلقي هو عبارة عـن المتلقـف الـذي قصده المُلقِي بفعل إلقائه "[٤].

---

(١) شرح المفصل،٨/ ١١٤.

(٢) السابق، ٧/ ٦٩.

(٣) التهانوي ، محمد بن علي : **كشاف اصطلاحات الفنون** ، تحقيق : عبد المنعم محمد حسنين ، و لطفي عبد البديع ،ج٢، القاهرة : المؤسسة المصرية العامة،١٩٦٣م ،ص٢٩١.

(٤) التكوثر العلقلي ، ص ٢١٤ .

وفي هذا إشارة واضحة إلى الانقطاع الحاصل بين طرفي التخاطب (المتكلم والمخاطب)، فلا تعدّ الفائدة فائدةً إلا باتصال طرفي التخاطب، فالمعنى المتحصل بدون قصد لا يحمل قيمة لدى السامع، ولا يعد حجة على المتكلم .

الخاتمــة

وبعد هذا العرض لمدى عناية النحويين بالتخاطب وأهميته في تحليل النص و بنائه ، فقد خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج من أهمها :

أولًا : عُني النحو العربي بالتخاطب لما لـه مـن أهميـة في توضـيح النصـوص التركيبية و تحليلها وتأصيلها، وكانت العناية بالمخاطـب أظهـر منهـا بـالمتكلم ؛ فهـو المقصود بالرسالة اللغوية، و التي هي في الأصل متمكنة في نفس المتكلم، وقـد أشـار النحاة إلى شروط التخاطب الصحيح مـن توحـد الزمـان والمكـان عنـد التخاطـب، والحضور الذهني للمخاطب، و القيام بكل ما من شأنه دفع اللبس عنه.

ثانيًا : للسياق في النحو العربي أهمية بالغة ؛ إذ يعوَّل عليه في إيضاح الكثير مـن التراكيب النحوية ؛ فبمعزل عن السياق التي قيلت فيه تلك التراكيب لا تصل الفائدة المرجوة للمخاطب.

ثالثًا : يشكل الحذف ظاهرة واضحة في العملية التخاطبية ؛ لما يقدمه السـياق، والحال المشاهدة، وعلم المخاطب من إشارات دلاليـة للمخاطـب تغنـي عـن اللفـظ اللغوي .

رابعًا : ترتبط الفائدة ارتباطًا وثيقًا بقصد المتكلم وإرادته الواعية لهـذا القصـد، وتعد معيارًا لصحة التركيب، وكذا فإنَّ الفائدة تتعدد بتعدد غايات المتكلم من جهـة، وتنقسم إلى فائدة بسيطة ومتوسطة وتامة من جهة أخرى .

خامسًا : يمثل ابن يعيش في كتابه شرح المفصـل نموذجًـا لتلـك العنايـة التـي أولاها النحاة للتخاطب.

المراجـــع

١. إبراير ، بشير ، **مفهوم النص في التراث اللساني العـربي** ، مجلـة جامعـة دمشـق، مجلد ٢٣، العدد الأول ، ٢٠٠٧م .

٢. أبلوار، رونالد: **مدخل إلى اللسانيات** ، ترجمة: بـدر الـدين القاسـم ، دمشـق : مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٨٠م .

٣. استيتية ، سمير : **منازل الرؤية** ، عمان : دار وائل ، ٢٠٠٣م .

٤. بحيري، سـعيد ، **علـم لغـة الـنص " المفـاهيم والاتجاهـات "** مكتبـة لبنـان ، بيروت، الشركة المصرية العالمية ، مصر ، ط١، ١٩٩٧م.

٥. براون ، ج ب و بول ، ج : **تحليل الخطب** ، ترجمة: محمد لطفي الزليطي و منـير التريكي ، المملكة العربية السعودية: النشر العلمي والمطابع ، ١٩٩٧م .

٦. بركـة، فاطمـة الطبـال : **النظريـة الألسـنية عنـد رومـان جاكبسـون" دراسـة ونصوص"** ، ط١، لبنان : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، ١٩٩٣م .

٧. التهانوي ، محمد بن علي : **كشاف اصطلاحات الفنـون** ، تحقيـق : عبـد المـنعم محمد حسنين ، و لطفي عبد البديع ، ج٢، القاهرة : المؤسسـة المصرـية العامـة، ١٩٦٣م .

٨. الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر: **البيان والتبيين** ، تحقيق: عبد السلام هارون ، ج١، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٦م .

٩. جاكبسون، رومان، **قضايا الشعرية**، ترجمـة محمـد الـولي ومبـارك حنـون، دار توبقال ، الدر البيضاء، ط١، ١٩٨٨م.

١٠. الجرجاني ، عبد القاهر : **دلائل الإعجاز** ، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي ، القاهرة : مكتبة القاهرة ، ١٩٦٩م .

١١. الخطابي ، محمد : **لسانيات النص** ، ط١، بيروت : المركز الثقافي العربي ، ١٩٩١م .

١٢. الخفاجي ، ابن سنان : **سر الفصاحة** ، تحقيق: عبد المتعال الصعيدي ، القاهرة : مكتبة علي صبح ، ١٩٩٦م .

١٣. ذو الرّمّة : **الديوان**، تقديم: أحمد حسن بسج ، ط١، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩٥م.

١٤. الراجحي ، عبده : **النحو العربي والدرس الحديث** ، بيروت : دار النهضة ، ١٩٧٩م .

١٥. الزناد ، الأزهر ، **نسيج النص " بحث في ما يكون به الملفوظ نصًا "** المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ، ط١، ١٩٩٣م.

١٦. ابن السراج ، أبو بكر: **الأصول في النحو** ، تحقيق: عبد الحسين الفتلي ، ج٢، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٨م.

١٧. سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: **الكتاب** ، تحقيق : عبد السلام هارون، ج١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ م .

١٨. ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل ، **المحكم والمحيط الأعظم** ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ٢٠٠٠ م.

١٩. السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع** ، تحقيق :عبد الحميد هنداوي ، ج٢، مصر: المكتبة التوفيقية.

٢٠. صفا ، فيصل : **نحو النص في النحو العربي (دراسة في مجموعة من العبارات النحوية الشارحة) المجلة العربية للعلوم الإنسانية** ، جامعة الكويت: العدد٩٢/ ٢٣.

٢١. عبد الرحمن ، طه : **التكوثر العقلي**، ط١، الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٨م.

٢٢. العسكري ، أبو هلال : **الفروق في اللغة** ، تحقيق : حسام الدين القرشي ، بيروت : دار الكتب العلمية .

٢٣. الغزالي، عبد القادر: **اللسانيات ونظرية التواصل (رومان ياكبسون نموذجًا)** ، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٣م .

٢٤. المبرد : **المقتضب** ، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة ، ج٤، القاهرة : المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ١٩٦٧م.

٢٥. مفتاح ، محمد : **تحليل الخطاب الشعري** ، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي ، ١٩٨٥م .

٢٦. ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ، **لسان العرب** ، تحقيق: عبد الله الكبير ومحمد أحمد وهاشم الشاذلي ، ط١، القاهرة، دار المعارف ، ١٩٨١م .

٢٧. الموسى ، نهاد : **الصورة والصيرورة" بصائر في أحوال الظاهرة النحوية ونظرية النحو العربي "** ، ط١، عمان : دار الشروق ، ٢٠٠٣م .

٢٨. النيسابوري ، أبو الفضل أحمد بن محمد، **مجمع الأمثال** ، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت.

٢٩. ابن يعيش ، موفق الدين : **شرح المفصل** ، بيروت : عالم الكتب .

Riyadh Rizq Allah Mansoor Abu Hola
Assistant professor of Arabic Syntax – Taybah University – Kingdom of Saudi Arabia
College of Literature and human sciences – department of Arabic language

Abstract:
This research titled (attention grammarians Arab in Speech in the analysis of the text and installed) and have taken the ibenea' eeshexample for such care, The importance lies in a statement that what has become known in our present theory of communication, it exists they have for employment practice; to show the construction right of the text, and the analysis and clarification of the text.

And split the search to four topics, I talked about theory communicative something of brevity, in first topic speaker and listener, and was the second part of the context Speech, eat Section III deletion in the installation Speech, and in the fourth section, and the latter was talking about the intent and interest Speech, and then came the finale. .

Key words:
Speech, speaker, listener, iben ea'eesh